بعثة الأميرال عبد الله بن عائشة إلى البلاط الفرنسي سنة 1698م

تاريخ الارسال : 2019-01-01	تاريخ القبول : 2019-11-15	تاريخ النشر : 2019-11-27

د. جمال سهيل

جامعة زيان عاشور -الجلفة-

الكلمات المفتاحية: الأميرال- عبد الله بن عائشة- السلطان إسماعيل- الملك لويس الرابع عشر- المغرب- فرنسا-القرصنة- الأسرى- العلاقات- البحر المتوسط.

الملخّص:

في سنة 1698م أرسل السلطان إسماعيل، سفارة بقيادة عبد الله بن عائشة إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، لإبرام معاهدة سلم وتحالف وتجارة بين الطرفين، وبالخصوص من أجل التوصل لحل مشكلة القرصنة والأسرى العالقة بين المغرب وفرنسا.

Abstract:

In 1698, Sultan Ismail, an embassy under the leadership of Abdullah bin Aisha, sent to Louis XIV of France to conclude a peace, alliance and trade treaty between the two parties, in particular to resolve the problem of the outstanding prisoners between Morocco and France.

مثلت سفارة عبد الله بن عائشة التي أرسلها السلطان إسماعيل إلى لويس الرابع عشر؛ واحدة من أبرز سفارات المغرب إلى فرنسا. كانت بسبب الأزمة بين المغرب وفرنسا، ومشكلة الأسرى لدى الجانبين، والتي لم يتوصل إلى حلها إلا بعد مرور عشرات السنين[1].

فإلى أي مدى نجحت هذه السفارة في حل قضية الأسرى ورفع حالة الحصار عن موانئ المغرب الأقصى؟

لقد كانت القرصنة خلال القرن السابع عشر الميلادي هي سمة النشاط البحري في البحر الأبيض المتوسط، يمارسها المسلمون وغيرهم، وقد ساهمت هذه الأعمال البحرية في سقوط العديد من الأسرى من كلا الجانبين في أيدي الجانب الآخر، وبسببها توترت الأجواء السياسية بين بلدان البحر الأبيض المتوسط التي تعرض مواطنوها للوقوع في الأسر، وجرت الكثير من المفاوضات والحروب تمّ على إثرها إرسال العديد من السفارات، أفضى بعضها إلى نتائج إيجابية والبعض الآخر لم يحقق أي نتائج تذكر.

ولعل قضية الحرب القرصانية بين المغرب، وفرنسا تعتبر واحدة من أشهر ما عانى منه شعوب البلدين، وخاصة من وقع منهم في أسر الآخر، حيث إن مشكلة الأسرى بين المغرب وفرنسا قد ظلت واحدة من أعقد المشاكل التي لم يتم التوصل إلى حل مناسب لها في عهد كل من لويس الرابع عشر والسلطان المغربي إسماعيل، وما سفارة عبد الله بن عائشة إلى بلاط لويس الرابع عشر إلا واحدة من المحاولات التي كانت تهدف إلى مشروع عقد سلام بين البلدين، يتم من خلاله استئناف المفاوضات، والتوصل إلى حل مرض لقضية أسرى الجانبين.

ومن خلال هذا المقال سأحاول دراسة ما يلي:

أ- شخصية السفير عبد الله بن عائشة.

ب- الظروف الممهدة لبعثته.

ج- الوفد المكون للبعثة.

د- مجريات البعثة.

هـ- نتائج بعثة عبد الله بن عائشة.

هـ- مشروع مصاهرة بين السلطان إسماعيل ولويس الرابع عشر:

و- نتائج سفارة عبد الله بن عائشة:

ز- جمود العلاقات والقطيعة الدبلوماسية:

أ- شخصية السفير عبد الله بن عائشة:

عند دراستنا لشخصية عبد الله بن عائشة وجدنا الحديث عنه في مراجع كثيرة، لكن لم نعثر على معلومات كافية عن حياته، فمعظم التركيز كان عن دوره البارز في النشاط البحري، ومغامراته الناجحة ضد خصومه. فمن هو عبد الله بن عائشة؟

يقول عنه ابن زيدان: "ومن عمال السلطان إسماعيل قائد الثغور والأسطول عبد الله بن عائشة الأندلسي الرباطي الولادة والوفاة. كان قائد الرباط والأسطول والسفير. ولاه السلطان إسماعيل شؤون البحر وهو من أشهر سفراء السلطان وهو القبطان العام وحارس البحرية... له في الكتب الأوربية من الذكر الجميل والثناء العطر...وعلوا لقدره سياسة وضبطا وحزما ونصيحة وأمانة...وهذا نبه دول أوربا إلى محاولة الظفر به فأسروه..."[2].

ولد بن عائشة في أواسط القرن 11هـ/17م، وزاول القرصنة شأنه شأن كثير من القادمين من الأندلس، ولا يعرف شيء يستحق الذكر عن حياته قبل أن يظهر

زعيما للقرصنة البحرية بحوض أبي رقراق[3]، سوى أنه توفي عام 1124هـ، وله من الولد ثلاثة أبناء وثلاث بنات[4].

ويذكر القنصل الفرنسي في سلا السيد جان باتيست إيستيل (Jean-Baptiste Estelle)، والذي كان معاصرا لعبد الله بن عائشة، وتربطه به علاقة قوية: "بأن ابن عائشة كان هو رئيس البحرية الملكية في المغرب، وهو واحد من أشهر قراصنة سلا المرعبين، وحينما ظهرت السفن الفرنسية التي يقودها القبطان كوتلوغان (Coëtlogon) في شهر جويلية 1698م أمام سواحل سلا، وهي تحمل التهديد بضرب المدينة، تمكن ابن عائشة من الدخول معهم في مفاوضات، ونجح في إقناع سلطان المغرب بالتفاوض مع فرنسا. فكانت تلك هي مناسبة وقوع الاختيار عليه ليذهب إلى فرنسا من أجل عقد السلام معها"[5].

وقال عنه أحد المفاوضين الفرنسيين[6] "إنه كان رجلا مليئا بالأمل وقمة في الأدب واللياقة، لا يمكن أن نتصورهما من رجل عمل في القرصنة بل ويعتبر من مواليد بلاد البربر، لكني أجد نفسي مجبرا على الاعتراف بأنه من خلال التعامل والمفاوضات معه وجدت فيه الرجل الطموح المليء بالأمل، ورجاجة العقل، مؤدبا في تعامله يشعرك بأنك تتعامل مع إنسان عاقل لم أعرف مثله"[7].

لقد كان عبد الله بن عائشة واحدا من أشهر رجال السلطان المولى إسماعيل، وخاصة فيما يتعلق بشؤون البحر والقرصنة، ولا غرابة في ذلك، فقد عمل ابن عائشة في هذا المجال أكثر من أربعين عاما، كما أشار بنفسه إلى ذلك عندما كان يتحدث عن بعض مفاوضيه في البلاط الفرنسي[8].

ب- الظروف الممهدة لبعثته:

على إثر فشل سفارة البارون "دو سانت أومون"(Baron de saint-Amans)، توقفت المفاوضات بين المغرب وفرنسا من سنة 1693م، حتى سنة 1699م، وهو التاريخ الذي شهد وصول سفارة عبد الله بن عائشة إلى باريس، وفي غياب أي تقارب أو تفاهم، دخل البلدان على العكس من ذلك، طيلة هذه الفترة في نزاعات مسلحة بين مجاهدي البحر المغاربة والقراصنة الفرنسيين، أثرت على التبادل التجاري بين الطرفين بشكل خطير، كما أن مسألة افتداء الأسرى أيضا، تأثرت بذلك، ولم يعد الاهتمام بها إلا على مستوى بعض المحسنين أو بعض عائلات الأسرى[9].

ومما يجسّد مشاعر العداء والشعور بالتذمر من الجانب الفرنسي نحو المغرب، الأوامر التي صدرت إلى "إستيل" القنصل الفرنسي بسلا بتاريخ 30 ديسمبر 1693م[10]، والقاضية بعدم الإصغاء مستقبلا لاقتراحات مولاي إسماعيل الرامية حول تكليف "إستيل" بمهمة جديدة في فرنسا.

كان لويس الرابع عشر عازما على إرسال سفن لمطاردة السلاويين في الشواطئ المغربية، ومن جهته، لم يكن يبخل "جان باتسيت إستيل"، بإرسال المعلومات والتقارير تلو الأخرى، لكتابة الدولة في البحرية حول تحركات مجاهدي البحر المغاربة وقوتهم وعدد سفنهم والمواسم التي يكثرون فيها إلى الخروج، حتى يتمكن المسؤولون عن شؤون البحرية من إعداد حملاتهم على المغاربة، بكل ما يمكن من الدقة[11]، لذلك تميزت سنوات من 1695م إلى1697م، بعدة معارك بحرية بين السفن المغربية

والفرنسية ، وقع على إثرها أسرى فرنسيون جدد في أيدي المغاربة[12].

غير أنه في هذه الظروف المشحونة بالعداء بين المغرب وفرنسا، شهدت أوربا حدثا هاما، ويتعلق الأمر بمعاهدة ريسويك (Ryswick)، التي جعلت حدا للحروب التي دارت رحاها بين فرنسا من جهة، وعصبة أغسبورغ (Ligue d'Augsbourg)[13]، من جهة ثانية في شهري سبتمبر وأكتوبر 1697م[14]، "...ورغم أن هذه المعاهدة لم تكن في صالح لويس الرابع عشر، إلا أنها أنهت ذلك الصراع المزمن بين فرنسا وإسبانيا، وسمحت للملك الفرنسي بالتفكير جيدا في إيجاد حل لمسألة الوراثة الإسبانية بعد وفاة شارل الثاني ملك إسبانيا، خصوصا إذا علمنا أن الإمبراطور "ليوبولد"، ولويس الرابع عشر ابنان وزوجان لأميرات إسبانيات..."[15]. هذا التغيير الذي طرأ على السياسة بأوربا أثّر في العلاقات المغربية الفرنسية بشكل سلبي، باعتبار أن الأمل في ضم إسبانيا إلى التاج الفرنسي ساهم في عدم إمكانية التوصل إلى أي تحالف بين المغرب وفرنسا، مادامت الجيوب المغربية المحتلة من طرف الإسبان ستخضع بدورها لفرنسا المتحدة مع اسبانيا، إذا ما آل الإرث الإسباني إلى راية لويس الرابع عشر[16] .

إنّ هذا العنصر المستجد الذي برز في حسابات الملك الفرنسي السياسية، ضاعف بالفعل من مشاعر العداء الفرنسي ضد المغرب وعوضا أن يصغي "بونشرطوان " لاقتراحات السلطان المغربي أو قائده علي بن عبد الله باستئناف مفاوضات السلم، نجده من خلال رسالة وجهها إلى القنصل " جان باتسيت استيل "يشدد موقفه، ولا يريد إرسال أي سفير إلى المغرب، ولا يرغب أن تتكرر تجربتا "دو سانت أمان" "ودوسانت أولون"، ولذلك فهو يرى أن أحسن وسيلة لحمل مولاي إسماعيل على توقيع السلم، هي استعمال القوة[17]، بمجرد ما ينتهي لويس الرابع عشر من قضايا أخرى أكثر أهمية، وقد سر"جان باتسيت إستيل" القنصل الفرنسي بسلا، لهذه الصرامة في اتخاذ المواقف، وشاطر "بونشرطران" رأيه في استعمال القوة[18].

وهكذا نلاحظ أنه بعد عدة سنوات من سوء التفاهم والتناحر وتوقف أي حوار بين البلدين، توصل الجانبان أخيرا إلى اتفاق يرمي إلى إنعاش النشاط الدبلوماسي، جريا وراء تعزيز العلاقات بين المغرب وفرنسا التي لم تعرف الاستقرار، منذ توقيع معاهدة "سان جرمان"، والتي ظلت بنودها حبرا على الورق، "فجاءت سفارة عبد الله بن عائشة إلى البلاط الفرنسي في هذه الظروف الحرجة، من أجل إقامة سلام دائم بين البلدين، وحل قضية الأسرى ورفع حالة الحصار عن موانئ المغرب، وفي هذه الظروف المتميزة بانعدام الثقة والاحتراز من الطرفين، انطلقت سفارة عبد الله بن عائشة إلى فرنسا في جو كله تكلف وتصنع، من بدايتها إلى نهايتها، وقد انعكس كل ذلك على نتائجها"[19].

ج- الوفد المكون للبعثة:

من خلال ما جاء في المصادر التاريخية، "فإنه بعد ثمانية أعوام من سفارة الغساني وجه المولى إسماعيل أحد قواده الكبار وهو الأميرال ابن عائشة الشهير، سفيرا إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وكان في معية هذا السفير، كاتب يدعى "محمد التركي"؛ الذي ألف رحلة عن هذه السفارة التي وقعت سنة (1110هـ/1699م)،

إلّا أنها مع الأسف تعتبر الآن ضائعة.كما ضمت البعثة كلا من: فابر(Fabre)؛ وهو تاجر من مقاطعة بروفانس(Provence)[20]، ومترجم هذه البعثة، وشخص محمد سوسان، والتاغري، والتويزري، وخمسة عشر فردا لخدمة أعضاء البعثة"[21].

د- مجريات البعثة:

1- مسارها: جاء توقيت هذه السفارة بعد المستجدات السياسية التي عرفتها أوربا على إثر توقيع معاهدة ريسويك سنة 1697م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وفي وقت تحول فيه العداء الفرنسي نحو إسبانيا إلى اتحاد مرتقب، مما يجعلنا نربط بين هذا التقارب الإسباني الفرنسي، وبين النتائج السلبية التي آلت إليها هاته السفارة، إضافة إلى الأسباب التقليدية التي أفشلت السفارات السابقة المتبادلة بين البلدين كمشكلة الأسرى، ومسألة القرصنة، واعتبار لويس الرابع عشر نفسه أعلى من الملوك والسلاطين[22].

كانت بداية هذه السفارة يوم 12 ربيع الثاني 1110هـ/الموافق لـ 18 أكتوبر 1698م من ميناء سلا (Slé)، وبعد ثلاثة وعشرين يوما من الإبحار وصل السفير المغربي عبد الله بن عائشة إلى ميناء بريستBrest، على متن سفينة الكونت "شاطو رونو" (château Renaud) يوم11نوفمبر1682م، وقبل مغادرة هذه المدينة، خضع لنفس الإجراءات التي خضع لها من قبل السفير محمد تميم سنة 1682م، لمعرفة مدى مصداقيته كسفير، وعندما استشير "جان باتيست إستيل" لإعطاء رأيه، حول هذه الشخصية، أظهر عدم ارتياحه نحوه في البداية، ووصفه بالعدو اللدود لفرنسا، إلا أنه في النهاية نصح بعدم إرسال عبد الله بن عائشة من حيث أتى، دون منحه الفرصة للبرهنة على حسن نية ملكه[23]. أمر لويس الرابع عشر بالقيام بكل هذه التحريات رغم رسالة السلطان المغربي التي وجهها إليه بتاريخ: 29 سبتمبر1693م[24]، والتي يبلغه فيها أنه رخّص لابن عائشة بالذهاب إلى فرنسا كسفير، وتبعا لذلك يجب معاملته بهذه الصفة كما أشعره بأنّه مزود بكامل الصلاحيات من أجل التفاوض حول مسألة الأسرى أو أي قضية تهم شؤون البحر، وكل ما سيقبله هذا السفير سيتم التصديق عليه وتنفيذه[25]. ومما يلفت النظر في هذه الرسالة ما طبعها من استخفاف وعدم اكتراث لويس الرابع عشر، وكأنه يقابل استعلاء بآخر، من ذلك ما ذكره مولاي إسماعيل، "من أن قبطان البحر الفرنسي، طلب الكلام من صاحبنا قبطان البحر...الرئيس عبد الله بن عائشة فأذنا له في الكلام معه..."[26].

كان أول رد فعل من لويس الرابع عشر، على ما ورد من استخفاف بشخصه في رسالة مولاي إسماعيل المشار إليها آنفا، تكليفه الكونت "دوشاطو رونو" (De château Renaud)، والفارس"دو سانت أولون" (De Saint Olon) بالتفاوض مع السفير المغربي "ببريست" (Brest)، إذ السلطان الذي لايكّن للويس الرابع عشر أي احترام، لا يستحق سفيره أن يحظى بشرف استقبال الملك الفرنسي بباريس، لكن عبد الله بن عائشة رفض تقديم أوراق اعتماده، كما رفض إجراء أي مفاوضات هناك، قبل أن يسلم رسالة اعتماده إلى لويس الرابع عشر الذي أصدر أمره أخيرا بالسماح لسفير المغرب بالتوجه إلى القصر الملكي بفرساي[27].

غادر عبد الله بن عائشة بريست يوم 12جانفي1699م، ولم يصل إلى باريس إلّا في 9 فيفري من السنة نفسها، حيث أسكن في فندق عادي[4]، أفرغ قبل وصوله إليه كل ماهو رفيع من الأثاث، ولم يجد أي أحد من الشخصيات في استقباله بأمر من لويس الرابع عشر، إنها بداية لا تبشر بالخير، ولا تدل على أن الفرنسيين راغبون في تناسي الخصومات، وعازمون على فتح صفحة جديدة من العلاقات الطيبة. وفي 16 فيفري استقبل لويس الرابع عشر بقصر فرساي[28] السفير المغربي الذي كان مرفوقا بكل أعضاء السفارة، بالإضافة إلى الخدام الذين كانوا يحملون الهدايا الموجهة إلى الملك الفرنسي[29].

وبعد تبادل كلمات الترحيب كلف لويس الرابع عشر الماركيز"دو طورسي"(DeTorcy) والكونت "دو موربا" (De Maurepas)" بالتفاوض مع عبد الله بن عائشة قصد إبرام السلم بين المغرب وفرنسا[30].

2- مفاوضات السلم المغربية الفرنسية:

تمّ الشروع في هذه المفاوضات بفرساي يوم 26 فيفري 1699م[31]، وكم كانت دهشة عبد الله بن عائشة كبيرة، عندما وجد نفسه أمام مفاوضيين يناقشون معه بنود معاهدة سان جيرمان، سنة 1682م، مع بعض التغييرات الطفيفة فيما يخص موضوع إفتداء الأسرى من الجانبين، دون أدنى إشارة لنص مشروع الهدنة الذي سلمه السفير المغربي إلى "الكونت ديستري" (D'estrèes)[32].

طلب عبد الله بن عائشة من المفاوضين الفرنسيين ترجمة التغييرات التي طرأت على معاهدة سان جيرمان إلى اللغة العربية، وبرر ذلك بأنّ سماعها غير كاف لاستيعاب مضمونها[33]، في جانفي 1699م، ظهرت بارقة أمل في إمكانية التوصل إلى اتفاق لاستئناف المفاوضات بين المغرب وفرنسا، وذلك عندما ظهر فشل المفاوضات المغربية الهولندية، رغم تدخل "ميموران" لصالح الهولنديين، واتضح أن صانع هذا الفشل هو عبد الله بن عائشة الذي يفضل السلم مع فرنسا أكثر مما يفضله مع الولايات العامة (هولندا)، بناءا على ما صرح به للقنصل "جان باتيست" يوم 27جانفي، الذي استحسن الفكرة[34] .

لكن هذا التفاهم بينهما لم يدم طويلا، بل تحول إلى صراع وسوء تفاهم كبيرين، بسبب ما أظهره القنصل الفرنسي من عدم احترام للسلطان، وذلك عندما ذكر لابن عائشة أن لويس لم يعد يولي أية مصداقية لرسائل السلطان المغربي، مما تسبب في مشاداة كلامية بين الشخصين، تم بعدها إشعار مولاي إسماعيل بكل ما حدث من طرف ابن عائشة[35].

هـ- مشروع مصاهرة بين السلطان إسماعيل ولويس الرابع عشر:

طلب المولى إسماعيل (1672 -1727م)، يد الأميرة دو كونتي (La Princesse de Conti)[36] ابنة ملك فرنسا لويس الرابع عشر، عن طريق سفيره عبد الله بن عائشة. غير أن بعض المؤرخين المغاربة يشككون في حقيقة هذا الطلب، ويعتبرونه من افتراءات المؤرخين الغربيين المغرضين. أرسل إلى فرنسا عارضا فكرة الزواج بأميرة فرنسية، مع احتفاظها بدينها. "وقوبلت تلك العروض بالاستهزاء، والسخط..."[37]، مما جعل الملك لويس يبعث إلى مولاي إسماعيل داعيا إياه لاعتناق المسيحية[38].

لم يتوقف افتتان المولى إسماعيل بإمبراطور فرنسا وعمرانه وقتها، بل عزم بقوة على مصاهرته لما طلب يد إحدى بنات ملك الشمس، الأميرة الفرنسية يد الأميرة "دو كونتي" فرفض القصر الإمبراطوري بلطف وأدب الرجاء الغريب للسلطان العلوي، لقد افتتان المولى إسماعيل بجمال الأميرة الفرنسية عن طريق ما حكاه له سفيره إلى لويس الرابع عشر، السفير المغربي ابن عائشة، حين استُقبل هذا الأخير من قبل الإمبراطور الفرنسي بقصر فيرساي يوم 16 فيفري 1698م، وشاهد يومها الأميرة "دو كونتي" وروى للسلطان عن حسنها ورقتها، وهي الحكاية التي اشتهرت في الأوساط الملكية والنخبوية بفرنسا، لدرجة أن شاعرا فرنسيا يدعى "جون بابتيست روسو"، نظم وقتها أبياتا شعرية للأميرة الفرنسية يقول فيها: "...جمالك يا كبيرة الأميرات، يحمل ملامح حب يصل جرحه إلى أوحش الأمكنة، فإفريقيا بك استسلمت،...وفتوحات عينيك تعدت، وفاقت ما وصل إليه هرقل..."[39].

و- نتائج سفارة عبد الله بن عائشة:

1- لم يكتب لهذه السفارة النجاح؛ لأن وزراء لويس الرابع عشر كانوا يريدون حمل عبد الله بن عائشة على التوقيع على معاهدة كانت كل بنودها لصالح فرنسا، ولا تختلف في محتواها عن معاهدة سان جرمان سنة 1682م، التي كان محمد تميم قد وقعها، ورفض مولاي إسماعيل المصادقة عليها، ويتأكد ذلك من رفض الجانب الفرنسي الاعتراف بالمشروع الذي التزم به الكونت ديستري (d'estrèes) مع عبد الله بن عائشة في شهر نوفمبر1698م؛ والذي بمقتضاه أرسلت هذه السفارة إلى فرنسا.

2- ومن العوامل التي ساهمت في إخفاق هذه السفارة، مشاعرُ العداء التي كان يكنّها الفرنسيون للسفير المغربي وسلطانه، إضافة إلى أن المفاوضين الرئيسيين للسفير المغربي وهما "طورسي"(Torcy)، و"موربا" (Maurepas)، لم يكونا في المستوى المطلوب لأداء هذه المهمة، لجهلهما بالشؤون المغربية[40].

3- حاول الفرنسيون التأثير على السفير المغربي، من خلال المعاملة السيئة التي لقيها[41]، معتقدين كباقي وزراء لويس الرابع عشر أن انبهار السفير المغربي وإعجابه بما زاره من المآثر التاريخية، وبما شاهده من المناظر الطبيعية، والحفلات المختلفة بفرنسا، سيكون كافيا للتأثير عليه وجعله ينصاع لقبول كل ما يعرض عليه، علما بأن هذه الخطة عبرت عن فشلها في سفارة الحاج محمد تميم.

4- نلاحظ أن المفاوضين الفرنسيين، أرادوا استدراج السفير المغربي لتوقيع معاهدة كل بنودها في صالح فرنسا، وهذا ما رفضه عبد الله بن عائشة، فأبدى اعتراضه لذلك، وتقدم باقتراحات مضادة لمشروع المعاهدة المعروضة عليه.

5- نجد أن جل الذين ساهموا في المفاوضات من قريب أو بعيد، وعلى رأسهم لويس الرابع عشر، يربطون إخفاق السفارة بضعف سلطة عبد الله بن عائشة، الذي لم يكن بوسعه أن يوقع أي شيء.

6- لقد كانت سفارة عبد الله بن عائشة إلى فرنسا سنة 1699/1698 ناجحة من الناحية الشخصية، إذ زار السفير المنشآت العمرانية والمتاحف الفنية والخزانات العامة، وحضر الحفلات الراقصة في ضيافة كبار الشخصيات من حاشية لويس الرابع عشر.

7- وكانت ناجحة أيضا على المستوى الشخصي من الناحية التجارية، بفعل التفاهم الذي حصل بين عبد الله بن عائشة، وبين "جوردان"، التاجر الفرنسي، فيما يخص إنشاء شركة تجارية بالمغرب، وهي التي أطلق عليها فيما بعد اسم "شركة سلا جوردان"(Salé jordane)، ولا تخفى علينا الأرباح المادية التي سيجنيها السفير المغربي مكافأة له على المساعدات التي قدمها لهذا التاجر لقبول تأسيس الشركة المذكورة بالمغرب[42].

8- لم تثمر هذه السفارة أي شيء من شأنه أن يدعم العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ويسهم في تحقيق الوئام المفقود، بل ازدادت العلاقات بين البلدين توترا بعد هذه السفارة، يشهد لذلك الأوامرُ التي صدرت للبحرية الفرنسية باستئناف الحرب ضد السلاويين، بعد أن تأكد إخفاق سفارة ابن عائشة،كما يشهد لذلك الصمتُ الذي تعمده لويس الرابع عشر عندما فضل عدم الإجابة على رسائل مولاي إسماعيل الثلاثة المتتالية في الشهور الأخيرة من سنة 1699م، التي حاول فيها السلطان المغربي توضيح موقف نتائج سفارته، وإعطاء رأيه حول مستقبل العلاقات المغربية الفرنسية.

ز- جمود العلاقات والقطيعة الدبلوماسية:

توترت العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وفرنسا، على إثر الفشل الذي منيت به سفارة عبد الله بن عائشة إلى باريس، ودخل البلدان في مرحلة من جمود العلاقات الدبلوماسية دامت سبعا وعشرين سنة، تميزت بالتوتر المستمر بسبب انشغال عاهلي البلدين في مشاكل سياسية وعسكرية خطيرة، ومن جرّاء مسألة الأسرى ودسائس الدول الأجنبية، وسوء التفاهم الحاصل بين التجار الفرنسيين بالمغرب ورعايا مولاي إسماعيل، والذي اعتبر سببا مباشرا أدى إلى قطع العلاقات بين البلدين.

وما إن أفل نجم النفوذ الفرنسي بالمغرب، حتى سطع نجم انجلترا، وقويت هيمنتها على حساب ما أصاب المصالح الفرنسية من إفلاس، بعد التقارب الذي حصل بين المغرب وانجلترا، على إثر جلاء هذه الأخيرة عن طنجة سنة 1684م، والذي توّج بإبرام معاهدة بين الطرفين سنة1721م.

هذا النجاح الذي أحرزه الإنجليز بالمغرب؛ هو الذي دفع بفرنسا إلى التفكير في إعادة النظر في علاقاتها مع مولاي إسماعيل، وبذل المساعي من أجل تطبيع العلاقات المغربية الفرنسية، غير أن هذه المساعي لم تؤت أكلها، ووافت المنية السلطان المغربي سنة1727م، قبل التوصل إلى أية تسوية.

بنهاية القرن السابع عشر حتى وفاة لويس الرابع عشر سنة 1715م، عرف كل من المغرب وفرنسا ظروفا صعبة؛ تتعلق بالحروب وعدم الاستقرار، وهي ظروف ساهمت بدون شك في توسيع الهوة بين البلدين.

ومما تقدم يمكن القول:

إنّ التمثيل الدبلوماسي للمغرب الأقصى في البلاط الفرنسي عرف تطورات هامة يمكن أن نجملها فيما يلي:

- أنّ أغلب الدبلوماسيين الذين أرسلوا في الفترة التي سبقت القرن 17م كانوا من الأوروبيين والمسيحيين، خاصة التجار، والقناصل الفرنسيين المقيمين بالمغرب الأقصى.

- أنّ السفراء المغاربة الذين أرسلوا إلى فرنسا أعطوا صورة واضحة عن الآخر خلال فترة تواجدهم بفرنسا؛ فكانت

نظرتهم ليست نظرة مسافر عادي، وإنما نظرة سفير أعطى للتمثيل السياسي والدبلوماسي لبلده الأولوية من خلال نقل أخبار مملكة آل بربون، والتغييرات الحاصلة بها.

– مرّت البعثات الدبلوماسية بين المغرب وفرنسا بفترات عصيبة تمّ خلالها إرسال العديد من السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين.

– كل سفارات المغرب نحو البلاط الفرنسي خلال القرن 11هـ/17م، تمت في عهد المولى زيدان والمولى إسماعيل من أجل التفاوض حول مسألتين هامتين هما: قضية الأسرى، واسترجاع المخطوطات العربية.

– أنّ العلاقات الدبلوماسية بين البلدين مرت بمرحلة فراغ وجمود من سنة 1619م؛ حتى سنة 1681م؛ وهي المرحلة التي سبقت سفارة الأميرال عبد الله بن عائشة.

– كل البعثات التي أرسلت إلى البلاط الفرنسي لم تحقق أهدافها المرجوّة، فكان مصيرها الفشل؛ نتيجة تمسك ملوك المغرب بتحقيق مطالبهم، وتعنّت البلاط الفرنسي في إقفال باب التفاوض.

– وصلت العلاقات الدبلوماسية إلى الباب المسدود، فتأثرت بذلك العلاقات التجارية، بعد إقفال قنصلية سلا الفرنسية، وقطعت العلاقات بين البلدين، فضاعت كل الجهود الدبلوماسية بفشل مشروع التحالف بين مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر.

– أغلب المبعوثين الدبلوماسيين الذين توجهوا إلى فرنسا كانوا من أصول أندلسية، مايدل على أهمية هذه الطائفة في المجال الدبلوماسي للمغرب الأقصى.

– كان هؤلاء المبعوثون على قدر كبير من الثقافة، متعددي اللغات، وعلى قدر كبير من سعة الأفق.

– لم يهتم المغرب في الفترة الحديثة بتعيين سفراء لتمثيله عند ملوك أوربا على أساس الإقامة عندهم لمدة طويلة، بل كان يرسل مبعوثين عنه لفترات قصيرة، وفي مهام مضبوطة، وغالبا ما كان هؤلاء السفراء يستعينون في رحلاتهم بخدمات القناصل الأوربيين المعتمدين بالمغرب، أو بالتجار الأجانب.

الهوامش:

(1) تزامن وصول هذه السفارة إلى فرنسا عام 1110هـ/1698م مع توتر الأجواء السياسية وتراكم المشاكل العالقة بين البلدين، خاصة تحرير الأسرى من الجانبين، ومسألة التبادل التجاري، انظر: فهد بن محمد السويكت: سفارة عبد الله بن عائشة إلى بلاط لويس الرابع عشر1110هـ/1698م أسبابها ونتائجها، في مجلة بحوث تاريخية، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ع16، الرياض، السعودية محرم 1425هـ/مارس2006م، ص 14.

(2) عبد الرحمان بن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، د.ن، الدار البيضاء، 1993م، ص ص 260،268.

(3) انظرعبد الله السويكت: المقال السابق، نقلا عن: إبراهيم حركات: ابن عائشة أمير البحر في عهد مولاي إسماعيل، في مجلة دعوة الحق، ع4، 1969م، ص126.

(4) عبد الرحمان بن زيدان: المرجع السابق، ص268.

(5). Henry De Castries: les sources inédites de L histoire du Maroc ,1serie, dynasty saadienne Archives bibliothèques de France, T2, éditeur Ernest leroux, Paris, France 1909.p26.

(6) إسمه (Louis Nicolas Tonnelie) محاضر في القاعة الملكية عام 1677م، مبعوث فوق العادة إلى الأمراء الايطاليين في العام 1682م، عين مقدما للسفراء في عام 1698م، وكتب مذكراته

وهو يشغل هذا المنصب. تناول فيها وصف تحركات السفير ابن عائشة وتنقلاته في فرنسا خلال الفترة من 11 نوفمبر 1698م إلى 5 ماي 1699م. انظر:op.cit, P213

(7) Ibid, P230. (Mémoires de Breteuil).

(8) عبد الله السويكت: المقال السابق، ص18.

(9) أحمد الأزمي: العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المغرب وفرنسا على عهد السلطان مولاي اسماعيل (1672-1727م)، منشورات مابعد الحداثة، فاس، المغرب 2007، ص62.

(1) Ibid, T4, pp 235-236.

(10) يلاحظ خلال فترة التوتر هذه وصول كثير من السفن الفرنسية إلى المغرب، وقد بعث القنصل الفرنسي (جان باتيست إسطيل) بعدة تقارير يفضح فيها المهربين، ويستنكر هاته الأعمال التي لا تخدم سوى مصلحة المغاربة الأعداء انظر:

- أحمد الأزمي: المرجع السابق، ص63.

(11) Ibid, p344.((Memoires de Jean Baptist Estelle, date de Salé, le 29 Septembre 1695).

(12) ضمت هذه العصبة، الولايات العامة (هولندا)، وممالك الإمبراطور النمساوي ليوبولبد الأول، وإسبانيا، والسويد، وبعض الإمارات الألمانية، وإنجلترا، انظر:

-André Alba: Les Temps moderns, Paris 1957, p352.

(13) Gaston Zeller, les temps moderns de Louis 14 à 1789, 3T, Paris 1955, T3, pp76-77.

(14) André Alba, Op cite.

(15) في شهر نوفمبر 1700م؛ أي بعد ثلاث سنوات من معاهدة ريسويك Ryswik توفي شارل الثاني ملك إسبانيا، موصيا بإمبراطوريته لفليب دوق أنجو (Philippe Duc d'Anjou) حيفد لويس الرابع عشر. انظر:

-André Alba, Op cite, p : 353

(16) Henry De Castries: Op.Cite, T4, p532.

(17) Ibid, p534.

(18) عبد الله السويكت: المقال السابق، ص 14، 18.

(19) Egene plantet: Moulay Ismail Emperieur du Maroc et la princesse de Conti, paris, France1893, pp 17-19.

(20) Ibid.

(21) غازي مختار طليمات: الوجيز في تاريخ الحضارة، ط1، دار طلاس للدراسات والنشر، بيروت، لبنان2000، ص22.

(22) Henry De Castries: Op.Cite, p713.

(23) Lettre de Moulay Ismail à Louis 14, date du 29 septembre 1698.

- Ibid, p681.

(24) Ibid, T5, p228.

(25) Ibid, T4, p682.

(26) Ibid, T5, p35.

(27) Ibid, p219.

(28) Ibid, p211.

(29) وصف (Breteuil) هذه الهدايا بأنها تافهة، وضمت جلود حمراء، وسرج لركوب الخيل، وقطع من الأثواب الصوفية ...

انظر: -Ibid, p219

(30) Ibid, T4, p686.

(31) Ibid, T5, p4.

(32) عبد الهادي التازي: دور القصر الصغير في التبادل الحضاري بالمتوسط (ندوة حول تاريخ الموقع الأثري)، في مجلة تطوان، ع15، تطوان، المغرب 2010، ص36.

(33) عبد العزيز بن عبد الله: المرجع السابق، ص89.

(34) عبد الهادي التازي: المرجع السابق، ص82.

(35) Ibid, T4, p594.

(36) Ibid, p697.

(37) الأميرة دو كونتي آن ماري دو بوربون ابنة الملك لويس الرابع عشر من الزوجة الثانية. انظر: Le petit Larousse grand – Format, Paris1995, p1481.

(38) Victor Piquet : Le Maroc Géographie – Histoire, Librairie Armand Colin, Paris1920, p103.

(39) عبد الرحمان بن زيدان: مسامرة في نقد أدلة طلب السلطان الجليل المولى إسماعيل لبنت الملك لويس الرابع عشر، في مجلة السعادة، ع81، المغرب 26 سبتمبر 1963، ص42.

(40) Paul Masson:Op.Cite, p216.

(41) Charles Penz, Op.Cite, P256.

(42) اشتكى عبد الله بن عائشة من سوء المعاملة لقيها في فرنسا بعد وصوله إلى المغرب مباشرة، انظر:

-Ibid, T5, p310.